عمر بن عبد العزيز

(٩٩_١٠١هـ/٧١٧_٧٢٠م)

التعريف بعمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص .... أبو حفص القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولد عام (٦٢) هـ / ٦٨٢م) بحلوان في مصر، فترعرع في بيئة مصرية اشتهرت بالنعيم وفي بيئة اشتهرت بالكرم والتقوى حفظ عمر القرآن وهو صغير، وما إن بلغ سن الرشد حتى اشتد حرصه على طلب العلم، ورغبته في تعلم الأدب، لذلك طلب آبيه عندما أراد أن يخرجه معه إلى الشام أن يرسله إلى المدينة ليتردد على فقهائها، ويتأدب بآدابهم حقق أبوه رغبته فلازم مشايخ قريش وتجنب شبابها، وما زال ذلك دابه حتى اشتهر ذكره، فشب متفقهاً في الدين راوياً للحديث عن كثير من الصحابة والتابعين، وعكف على دراسة الأدب، ونظم الشعر، حتى بلغ مرحلة متقدمة، وكان حجة عند العلماء فقد قال الإمام أحمد بن حنبل (لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز)

و ظل عمر في المدينة حتى وفاة والده في عام (٨٥) هـ / ٧٠٤م) وانت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، فبعث يطلب ابن أخيه إلى دمشق وزوجه ابنته فاطمة و عينه الياً على إمارة صغيرة في الشام في خناصرة من أعمال حلب أراد أن يدربه على الإدارة وفن الحكم وبقي عمر والياً على خناصرة حتى وفاة عمه عبد الملك في عام (٨٦) هـ / (٧٠٥م) وتولية ابنه الوليد الخلافة الذي استمر في التعاون مع ابن عمه فعينه والياً على المدينة في عام (٨٧هـ/٧٠٦م).

كان تعيين عمر واليا على المدينة دليلاً على رغبة الوليد في إقامة العدل بين سكانها بعد سيرة هشام بن إسماعيل المخزومي السيئة فيهم، فأراد الوليد أن يعوضهم برجل يعتبرونه واحد منهم.

ولا شك بأن أهل المدينة سعدوا بولاية عمر الذي ظهرت رغبته في تحقيق العدل من اللحظة الأولى لتوليته، فاتخذ له أعواناً ومستشارين من خيرة أهلها ليعاونوه على الحق، وحرص أن تكون ولايته مثالاً للتعايش المتكافيء بين مختلف الفئات، في إطار القوانين الإسلامية، متأثراً، إلى حد كبير، بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب، ونهجه وما لبثت المدينة أن أضحت مجتمعاً منفتحاً على كل الاتجاهات السياسية والدينية.

بقي عمر والياً على المدينة حوالي ستة أعوام، كان فيها موضع الرضا من أهلها ، ومثالاً للتقى والورع، ويفعل سياسته الانفتاحية، أضحت المدينة ملجأ للمضطهدين والملاحقين من قبل السلطة، خاصة الحجاج في العراق حيث وجدوا الاستقرار والأمن لكن ذلك كان سبباً في توتير العلاقة مع الإدارة المركزية التي ساءها تصرف والي المدينة، وضايقها انفتاحه، مما يعتبر خروجاً على التقاليد المتوارثة في نهج حكم، لذلك عزل الخليفة الوليد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز في عام (٩٣ ه٧١٢م) بناء على طلب الحجاج الذي شكا من أن العصاة والخارجين على النظام من أهل العراق، يلجأون إليه، ويجدون عنده المأوى والحماية.

أثرت حادثة العزل على نفسية ،عمر، فتألم لذلك ولم يتول عملاً رسمياً بقية خلافة الوليد وعندما تولى سليمان الخلافة أضحى عمر من أقرب الناس إليه، ومن كبار مستشاريه وأعوانه، وظل يلازمه طوال ،خلافته، وأعجب الخليفة بابن عمه، وكان شديد الثقة به .

ولما مرض سليمان مرضه الذي توفي فيه كتب كتاباً بتوليته الخلافة، بناء على

نصيحة رجاء بن حيوة، على أن تعود بعد وفاته إلى يزيد بن عبد الملك، ودعا أهل بيته وقال لهم(بايعت لمن عهدت إليه في هذا الكتاب) ولم يعلمهم به فبايعوا متوجاً بذلك أعماله الصالحة والحقيقة أن عمر لم يكن راغباً في تولي الخلافة، فقد كان يعرف أنها حمل ثقيل، ومسؤولية جسيمة.

ولما توفي سليمان في دابق جمع رجاء وجوه بني أمية وكتم موت الخليفة عنهم وخرج بعهده المحتوم وطلب منهم المبايعة مرة أخرى لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم، أخبرهم بوفاة سليمان، وقرأ عليهم الكتاب، فبايعوا عمر بن عبد العزيز

لكن القرار جاء صدمة لأبناء عبد الملك، وفي طليعتهم هشام الذي رفض في البدء الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يبايع الا عندما سمع باستخلاف يزيد بن عبد الملك بعد عمر.

كانت الخلافة نقطة تحول في حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية، وذات أثر كبير في تاريخ دولة الخلافة الأموية بشكل خاص والتاريخ الإسلامي بشكل عام من ناحية أخرى.

أما أثرها في حياة عمر، فقد فصلت بين مرحلتين، مرحلة كان عمر فيها، رغم صلاحه وتقواه، يتقلب في النعيم ويحيا حياة مترفة ناعمة، يلبس لين الثياب، ويأكل طيب الطعام، ويتبختر في مشيته، حتى عرفت مشيته بالعمرية لتميزها، وكان إذا مر من شارع تفوح منه رائحة المسك، كما كان كثير العناية بتسريح شعره والاعتناء بحسن مظهره.

أما المرحلة التي قضاها عمر في الخلافة فقد تميزت بالزهد الصادق، والبعد عن زخرف الحياة وزينتها وإحساسه العميق بالمسؤولية حتى قسا على نفسه في ذلك. اعتقاداً منه أنه ربما يكون قد أسرف في الحياة الناعمة، قبل أن يلي الخلافة، فكأنه أراد. أن يكثر عن ذلك بالقسوة على نفسه، لذلك رفض استعمال مراكب الخلافة بعد بعثه الما فيها من الأبهة والفخامة.

أما أثر خلافته في تاريخ دولة الخلافة الأموية فإن نهج عمر. في الحكم يعتبر خروجاً على النهج الذي اختطه معاوية بن أبي سفيان، وسار عليه من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، وهو إلى النهج الراشدي أقرب، ومغيرآ بعض المفاهيم الأموية التي اعتبرها شاذة، مقوماً بذلك ما عرف عن هذا النظام من خروج على التقاليد الإسلامية.

أما أثر خلافته في التاريخ الإسلامي، فإن عمر قدم الدليل الواضح على أنه إذا صحت عزيمة الحاكم المسلم واستشعر بالمسؤولية عن الأمة أمام الله تعالى، أضحى بإمكانه أن يقوم الأوضاع المعوجة، وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل.

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك، زاهداً في الملك غير طامع فيه ولعل الخلافة سعت إليه دون أن يسعى للوصول إليها ويبدو أن ظروفاً غير عادية أسهمت في ذلك، أهمها: وفاة الخليفة سليمان وهو يتابع أخبار حملته إلى القسطنطينية التي كان أحد قادتها ابنه داوود، بينما ابنه الآخر كان لا يزال صغيراً، فاستغل رجاء هذا الفراغ وتوصل إلى إقناعه بتولية عمر بن عبد العزيز خليفة له .

أعاد عمر إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين فلما ولي الخلافة خطبهم فقال «أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه السلام، وإني لست بقاض ولكني منفذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم إلا أن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة

لمخلوق في معصية الخالق عز وجل، وفي رواية أنه قال: «إني لست بخير من أحد منكم ولكني أثقلكم حملاً الا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ألا هل أسمعت ؟»

وفي خطبة له في مستهل عهده أنه قال « من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا على الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض فيما لا يعنيه». فالتفت حوله الفقهاء والزهاد وتجنبه الشعراء والخطباء.

سياسة عمر بن عبد العزيز العامة

كان لعمر بن عبد العزيز نظرته الخاصة في تقويم ما اعوج من الأمور إن في حقل

السياسة الخارجية والداخلية، أو في حقل الإدارة والمال. إنه أول خليفة أموي شد عن النهج التقليدي الذي سار عليه الأمويون. لقد كان مختلفاً عن أقرانه حتى في حياته الخاصة التي اتسمت بالبساطة، والابتعاد عن المظاهر الملكية، وتناول في إصلاحاته التي نفذها مختلف جوانب المجتمع بحيث أعاد النظر في النهج والأسلوب . ففي حقل السياسة الخارجية، يعتبر القرار الذي اتخذه بانسحاب مسلمة بن عبد أمام أسوار القسطنطينية، تحديداً لموقفه من الفتوحات، القاضي بتجميد العمليات العسكرية، والمحافظة على مكتسبات الفتوح والدفاع عنها ضد الأخطار الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى اتباع سياسة سلمية تجاه الشعوب غير الإسلامية، ودعوتها إلى الإسلام".

أما في حقل السياسة الداخلية، فقد تناول في إصلاحاته مختلف جوانب المجتمع الإسلامي ولعل أهمها : انفتاحه على الأحزاب المعارضة، بهدف التخفيف من عدائها التقليدي للأمويين كالشيعة والخوارج . استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها الفتوحات.

التسامح الديني مع غير المسلمين، ودعوتهم إلى الإسلام. خلق طبقة إدارية متأثرة بأفكاره الإصلاحية

ففيما يتعلق بانفتاحه على الأحزاب المعارضة، فقد ترك عمر لعن علي بن أبي طالب على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء

والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) . ويمثل هذا التصرف سياسة رشيدة تهدف إلى رأب الصدع، وتضميد الجراح التي دفعت بالمسلمين إلى الحروب الأهلية، وقد سار في ذلك على خطى والده عبد العزيز في واشتهر عمر بانفتاحه على الخوارج، وكان يرى أن سياسة المسالمة كفيلة بحل المشكلات الشمل، وتوحيد الكلمة. ولم يشأ أن يسلك العنف، أو يأخذهم بالشدة عندما خرجوا في عهده، فحاورهم وأقنعهم بالكف عن حقن الدماء، فأرسل إلى شوذب الخارجي كتاباً يقول فيه : بلغني أنك خرجت غضباً الله ولنبيه، ولست أولى بذلك مني، فهلم أنا ظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرناه . مصر وجمع معهم سبيل

. لقد هدف عمر إلى إزالة الخلاف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان، وقد أثمرت هذه السياسة فشهد أحد المتحاورين من الخوارج بأنه على صواب، لكن لغة الحوار مع الخوارج لم تستمر بفعل وفاة عمر ونلاحظ أنهم هجروا العنف في عهده والتفتوا إلى حماية الضعفاء والمضطهدين ومحاربة المستبدين والظالمين

وفيما يتعلق بالتسامح الديني مع غير المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام، فقد نظم عمر حركة ملؤها الحماسة الدينية لنشر الدعوة الإسلامية، وقدَّم لأهالي البلاد المفتوحة الإغراءات المالية للدخول في الإسلام وتذكر الروايات التاريخية أنه أعطى بطريقاً ألف دينار تألفه بها على الإسلام، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام، حتى إنه كتب إلى الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث يدعوه إلى الإسلام، ومع تقدير هذا الأخير لشخص عمر وخلقه وحصافة سياسته إلا أن الدعوة وقفت عند هذا الحد بفعل وفاة عمر قبل أن يرد الإمبراطور على رسالته . ودخل في الدين الإسلامي كثير من سكان بلاد ما وراء النهر كما استجاب كثير من أمراء السند لدعوته، وأرسل عمر الفقهاء إلى المغرب ليفقهوا مسلمي البرير وبذل عامله على هذه البلاد، إسماعيل بن عبد الله نشاطاً ملحوظاً في دعوة من تبقى من البربر إلى الإسلام. وفيما يتعلق بالإدارة، فقد كان عمر على مستوى عال في التفكير الإداري فقد تمرس على العمل الإداري منذ أن كان والياً على خناصرة والمدينة، وازدادت خبرته في العمل الإداري، بعد أن أضحى مقرباً من الخليفة سليمان، ومستشاراً له، بفعل أنه راح ينظر إلى الأمور الإدارية عن قرب، ويتمرس على إدارة شؤون الدولة، وتسيير دفة الحكم ..ولما تولى الخلافة، راح يعمل في إصلاح أجهزتها الإدارية، وتحقيق العدالة والاستقرار فيها، كما اتخذ منهجاً يتجلى في المحافظة على المال والوقت والجهد وسرعة التصرف في الأمور وحسن

اختيار القضاة والولاة والموظفين، وتحقيق التوازن بين الناس كافة ومن شدة حرصه على الوقت فإنه كان لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد، كما كان يعمل على سرعة تصريف الأمور، حتى ظهر عليه الإرهاق. لم يرض عمر عن الأسلوب الذي أدار فيه بعض عمال بني أمية أمور الدولة، وكان يرى أنهم تجاوزوا الحد في القسوة والجبروت فانتقى أفضل وأصلح الرجال وولأهم الأعمال، وكان حريصاً على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلماً وإيماناً وقبولاً لدى المسلمين لم يكن عمر يحسن اختيار عماله فحسب بل كان يتابع أعمالهم ويرسم لهم المنهج الذي ينبغي أن يطبقوه ليقيموا العدل بين الناس وكتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب السلام عليك، أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك فإنه لا قليل من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر ، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر، إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض. فاتبع في ذلك أمري، فإني قد وليتك من ذلك ما ولأني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب، حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد أن يحج من الذرية فعجل له مائة يحج بها والسلام). وكتب إلى عامله على الموصل يحيى الغساني أن يأخذ الناس بالبيئة وما جرت عليه السنة، ولا يأخذهم بالظلة ويضربهم على التهمة. وتلقي هذه التعليمات ضوءاً واضحاً على أساليب الحكم التي كانت متبعة في تلك الأيام خاصة في العراق، حيث كان الناس يؤخذون بالشبهات، وهذا أسلوب عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف بشكل خاص . واستطاع عمر في بداية عهده أن أبعد بقايا تلاميذ الحجاج وأبناء مدرسته عع الإدارة، ولكن مع ذلك بقي في إدارة الدولة رجال لا يتفق أسلوبهم الإداري مع نهجه مثل يزيد بن المهلب وآله الذين قال عنهم عمر هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ولذلك عزله فيما بعد .وفيما يتعلق باستيعاب المشاكل التي أفرزتها الفتوحات، فقد حرص عمر على إزالة الظاهرة السيئة التي كانت مطبقة في الدولة، وهي ظاهرة أخذ الجزية من الذين أسلموا حديثاً، وكان الهدف من وراء ذلك تحقيق المساواة بين المسلمين، بغض النظر اصرهم والوصول إلى تهيئة الأجواء المناسبة لانتشار الإسلام وتثبيته ١٤٢ / ٢٢٥ د المفتوحة، وإقامة مجتمع متحرر من العقد الاجتماعية والحساسيات القومية والقبلية فأمر عامله على خراسان، الجراح بن عبد الله الحكمي، أن يدعو السكان إلى الإسلام، وأن يخبرهم بأن الجزية والخراج سيرفعان

عمن يسلم منهم، وأن اسمه سيسجل في ديوان العطاء، وسيعامل كبقية المسلمين من حيث الحقوق والواجبات

والواقع أن هذا الإجراء الذي اتخذه عمر جاء نتيجة وصول شكاوى من خراسان تفيد بأن عشرين ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، وأن عدداً مثلهم من أهل الذمة قد أسلموا دون أن يرفع الخراج عنهم، وقد اتهمت هذه الشكاوى الجراح بالتعصب للعرب، كما اتهمته بأنه سيف من سيوف الحجاج

ورأى عمر أن الوسيلة لمنع تصدع الدولة وانحلالها السريع، ووضع حد للاضطرابات والفتن هي جمع الناس حول العقيدة الإسلامية، وانصهارهم في المجتمع الإسلامي، دون تمييز في الحقوق والواجبات.

وتنفيذاً لهذا المبدأ، أصدر أمراً إلى جميع عماله في أنحاء الدولة يقول لهم: وعليه، فكل من يعتنق الإسلام، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم مجوسياً ممن يدفعون الجزية الآن، ويساكنون المسلمين في دار الإسلام، بعد أن تخلوا عن ديارهم التي كانوا يسكنونها من قبل، فإنه يتمتع بكل الامتيازات التي يتمتع بها المسلمون، ويتحمل ما يتحملون من واجبات، وعلى المسلمين أن يسالموه ويعاملوه كواحد منهم والملاحظ في هذا الأمر، أن عمر تجنب لفظ الموالي، وما ذلك إلا لأنه حاول

أن يؤكد أن الانتماء في المجتمع يقوم على أساس الإسلام، وعلى المساواة، وليس قبيلة ما. وأكد أن العطاء لا يعطى للمقاتلة، لمجرد كونهم عرباً، ١٤٣ /٢٢٥

ن لمن يقاتلون فعلاً من المسلمين دون تمييز، وأن من يعتنق الإسلام لا يدفع من الضرائب إلا مثل ما يدفعه المسلم العربي الذي في مثل وضعه . نتيجة لهذه السياسة العمرية، ازداد إقبال الناس على الدخول في الإسلام فنقص إيراد بيت المال نقصاً ملحوظاً، وشعر الولاة بذلك فشكوا إلى الخليفة الذي لم يستطع أن ينظر إلى القضية إلا من الزاوية الدينية فكتب إلى واليه على مصر حيان بن شريح الذي شرح له وضع أهل الذمة، ودخولهم في الإسلام، وكسرهم الجزية: «أمابعد فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل فتعززت نتيجة هذه السياسة مواقعهم الاجتماعية بشكل ملموس.

ومن أعمال عمر الإصلاحية أنه أمر ببناء الخانات في البلدان القاصية، وعلى طريق ،خراسان وكتب بذلك إلى سليمان بن أبي السري وزوده بتعليمات تقضي باستضافة المسلمين المسافرين يوماً وليلة وتعهد دوابهم، ومن كانت به علة فاستضافته يومين وليلتين، وإن كان منقطعاً فليبلغه بلده

وهكذا حقق عمر بن عبد العزيز أفكاره المثالية التي تهدف إلى نشر سلطان العدل والرفق في جمع المال وعدم جباية الأموال غير الشرعية، كما منع قبول الهدايا، إلا أنه لم يكن من الممكن أن يستمر تحقيق كل أفكاره المثالية هذه، فإعفاء الذين يدخلون في الإسلام من دفع الجزية كان يقلل الدخل، بينما كان جمع ما كانوا يحصلونه من غير المسلمين يزيد الأعباء المالية على عاتق هؤلاء كذلك كان السماح بالهجرة للمزارعين الذين يدخلون في الإسلام سبباً في خراب الريف، ومثل هذا يمكن أن يقال عن بعض القضايا الأخرى، لذلك لم يكن من المستغرب أن تعود الدولة إلى سياستها السابقة بعد

وفاته .

وفاة عمر بن عبد العزيز

سمعان بين حماة توفي عمر بن عبد العزيز في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٠١ هـ شهر كانون الثاني عام ٧٢٠م) وهو بخناصرة من دير . وحلب عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين عاماً، وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر، ويعتبر عهده من أحسن عهود الخلفاء حتى إن بعض المؤرخين اعتبروه متمماً العهد الخلفاء الراشدين